# اللغة العربيـة فى جاهليتهـا

## كيف انتهت الى لغة القرآن

للاستاذ السباعى السباعى بيومى
المدرس بدار العلوم العليا

اجتازت العربية فى جاهليتها ثلاثة أطوار: طور أول هو نشوءها على لسان العرب البائدة الذين هم أقرب الشعوب العربية إلى سام بن نوح لأنهم إلى ابنه إرم ينسبون، وطور ثان هو ما كان من اختلاط هذا الشعب الأول بسكان اليمن القدماء، اختلاطا جعل لغة كل فريق تؤثر فى أختها؛ ولكن يظهر أن الغلبة كانت للغة العرب البائدة على اليمنية القديمة، فصارت أوضح منها فى العربية الثانية، لما هو متفق عليه، من أن اليمنيين تعربوا على عهد يعرب بن قحطان، فعرفوا بالعرب المتعربة، ثم كان ما كان من انقراض العرب البائدة وبقاء العربية ممثلة على لسان القحطانيين وحدهم؛ أما الطور الثالث فهو ما كان من نشوء شعب عربى جديد حيث نزل إبراهيم وادى مكة على مقربة من جرهم القحطانية، فرفع قواعد البيت، ثم عاد تاركا هناك ولده إسماعيل الذى أصهر من تلك القبيلة، فكان له بنون نشأوا يتكلمون لغة جديدة، تأثروا فيها بلغة أبيهم وبلغة أمهم حتى إذا ما انحدر التناسل فى ذريته إلى ابنه عدنان، ثم ظهور شعب آخر، هو الشعب العدنانى الذى عرف باسم العرب المستعربة، وبذلك كانت هناك لغتان: قحطانية فى الجنوب، وعدنانية فى الشمال؛ ولكن مهما قلنا فى التفرقة بين اللغتين، فلن تبلغ التفرقة جعل كل واحدة منهما تامة الاستقلال عن الأخرى، لأن تكوين الثانية من الأولى يأبى هذا الاستقلال كما يحتم فى الوقت ذاته أن تكون الأولى أغلب على الثانية، عملا بتغلب الكثير على القليل، وكذلك مهما قلنا فى التقارب بينهما فلن يبلغ التقارب درجة الاتحاد، وبخاصة إذا علمنا أن معظم الشعوب القحطانية حين نشوء العدنانية كانوا بعيدين فى الجنوب عن الاختلاط بالعدنانيين فى الشمال، وعلى هذا كان هناك خلاف تناولته عوامل التهذيب بالتقريب والتوحيد، كما تناولت اللغة من ناحية أخرى بالترقية والتحسين حتى انتهت إلى لغة القرآن، وهو ما نتكلم فيه الآن.

### عوامل التهذيب

يقصد بالتهذيب الذى حدث فى اللغة إذن حتى انتهت إلى لغة القرآن أمران: أحدهما السير بها فى طريق التحسين والترقى بمجهود كل قبيل على حدة، وبقطع النظر عن أن يتقرب فى ذلك

إلى لهجات غيره من القبائل الأخرى ، والثانى العمل على تقريب تلك اللهجات بعضها من بعض تقريبا ينتهى كما انتهى بما هو أشبه بالتوحيد؛ ولكل من هذين الأمرين عوامل هى المجتمعات الخاصة للأول والعامة للثانى، على أنه من الطبيعى أن تكون المجتمعات العامة مع اختصاصها بالتهذيب من ناحية التوحيد عاملة عليه أيضا من الناحية الأخرى، فماهى إذن تلكم المجتمعات ؟

## المجتمعات الخاصة

كان للعرب مجتمعات خاصة كثيرة دفعتهم إليها أحوالهم، وشهدت بها ألفاظهم، وكلها كان يستدعى منهم أن يقولوا ويتكلموا، محاولين فى ذلك تجويد قولهم، وتحسين كلامهم ما أمدتهم القريحة وطاوعهم البيان، وفى هذا من العود على اللغة بالتقدم والترقى ما نريد أن نقول .

فمن تلك المجتمعات ما كان للمذاكرة والمشاورة فى تدارك حرب أو شب غارة ، وكان يقع غالبا فى قبة يضربها لهم من تكفل بأمرهم، فيجتمع فيها أهل الحل والعقد منهم، ثم تدور أقداح القول ويجرى النقاش فيه تأييدا أو نقضا حتى يصلوا إلى رأى يستقرون عليه ويعزمون العمل به ؛ ومن هنا نشأ ما يذكرونه من الرأى المبيت وطلب الاقبال عليه، والرأى الفطير والتحذير منه .

ومنها ما كان للحكومة وفصل الدعاوى والمنازعات، فيستعد كل فريق للادلاء برأيه والدفاع عن وجهة نظره أمام حكم يرضونه ويذعنون لحكمه، وقد كان هؤلاء الحكام يختارون ممن عرفوا بحصافة الرأى وحضور البديهة وقوة البيان، حتى يكونوا قديرين على مناقشة الخصوم واستجلاء الحقيقة من هذه المعمعة الكلامية، التى يريد أن يخرج منها كل طرف فى الخصومة على خصمه فائزا منصوراً .

ومنها ما كان للتحالف والتعاقد على الدخول فى أمر أو الكف عن أمر، مما يتطلب من ذوى المكانة والزعامة قبل الدعوى إليه قولا وبيانا ، ومن السامعين مدافعة وحوارا ، حتى تستقر الأشياء فى أنصبتها، وتطمئن النفوس إلى الايمان بها؛ ومن ذلك حلف المطيبين حين أراد بنو عبد مناف أن يأخذوا من بنى عمهم عبد الدار ما أعطاهم إياه أبوهما قصى بن كلاب من أمور البيت، فأبوا عليهم ، وكاد يقع الشر لولا هذا الحلف الذى قسم تلك الأمور بينهما، وإنما سمى بذلك لأنهم غمسوا أيديهم حين عقده فى طيب مسحوا به الكعبة توكيدا له وتوثيقا، وكثيرا ما كان يقع التحالف إذا تسافه أفراد القبيلة تسافها يقتحم الحد ويتهجم على العرف، فيهب أشرافها يدعون إلى التآمر بالمعروف والتناهى عن المنكر، ويتعاقدون عليه كما فعلت قريش فى حلف الفضول على يدى العباس بن عبد المطلب، وسفيان بن حرب، ورسول الله يومئذ ابن خمس عشرة، وهو الحلف الذى قال فيه صلى الله عليه وسلم «لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم، ولو دعى إليه فى الاسلام لأجبت »

ومنها ماكان للعظة والاعتبار، فما خلا قبيل من ذى بصيرة نافذة ونفس طاهرة يجتمعون إليه بعض أيامهم لاستماع مافيه ترغيب أو ترهيب كما توحى عقائدهم وتهدى فطرهم، ومن هذا النوع مايقال من اجتماع قريش حول كعب بن لؤى الجد السابع لرسول الله، كل يوم عروبة، يعظهم ويذكرهم، وأنه لذلك سمى يوم الجمعة، كما أنه لذلك أيضا لسبقه يومى السبت لليهود والأحد للنصارى، اختاره الاسلام بعد، فجعل صلاة الجمعة فيه .

ومنها ماكان إذا خلوا من مشاغلهم لمحض الأنس وترويح النفس: بذكر ماسلف من الحروب والوقائع، وقص مامضى من السير والأخبار، وتناشد ماحلا من الشعر والقريض، إلى غير ذلك مما تنشرح له الصدور، وتنتعش به الأفئدة؛ وكان هذا النوع من المجتمعات لايقع عادة إلا ليلا، ولذا سمى حديثه بالمسامرة والسمر، وهما فى اللغة حديث الليل، وكانت عادتهم فيه أن يتحلقوا وفى وسطهم من ينتهى إليه أمرهم، وكثيرا ماكان يتحمس المتكلم منهم إذا أراد ذكر قصص غريب أو حادث عجيب، فينهض لالقائه واقفاً كما يفعل الخطيب .

فهذه المجتمعات الخاصة قطعت فى تهذيب اللغة بالمعنى الأول شوطا بعيدا، ولها أسست الأندية، ومن أقدمها دار الندوة التى أسسها قصى بن كلاب، فكانت تجتمع فيها قريش للأمور السالفة ليلا ونهارا، ومن ثم سمى مجمعا، على أن الاجتماع بها لم يقتصر على تلك الأمور، بل تعداها إلى غيرها: كالأملاك والأعذار، فكان يقع من الكلام مايلائم الموضوع، ومن الخطب مايناسب المقام .

## المجتمعات العامة

أما المجتمعات العامة فنعنى بها مأدى الاجتماع فيها إلى الاختلاط بين قبيلتين أو أكثر، أيا كان الدافع إلى هذا الاختلاط، ونقصد منها أكثر ماتقصد إلى العمل على التقارب والتوحيد بين لغات القبائل، وبخاصة يمن ومضر، وإن كانت تؤدى مع هذا إلى ماسبق ذكره من رقى اللغة وجودتها؛ وقبل أن نتكلم على عواملها، وهما قريش والأسواق، لابد لنا من القول بأن العامل الأساسى لها قبل هذين كان اختلاط القحطانية بالعدنانية، حيث غادرت كثرتها اليمن فى القديم: لسيل العرم، أو للعيش، أو لغيرهما من أى شىء تشاء، فملأت من الجزيرة العربية وسطها وشمالها، ومابعد من أطرافها، وبذلك كان تخالط وكان امتزاج ذهبت به الفوارق اللغوية الجسيمة بحكم الطبيعة وعلى توالى الأيام، ثم كان ماسنذكره عن قريش والاسواق، فضعف كل الضعف مابقى من فارق أو كاد .

## قريش

«إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا» رفع إبراهيم قواعده وابنه إسماعيل، فأقاما أركانه وأتما بنيانه، وتقبل الله دعاءهما الذى حكاه سبحانه عنهما « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من

البيت وإسماعيل، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم» فكان بيتا محجوجا يقصده العرب من كل مكان قصى، ويأتون إليه من كل فج عميق، يطوفون به ويقضون مناسكهم فيه؛ ولقد كانت أفئدتهم تهوى إليه استجابة لدعاء نبيهُ وخليله حيث يقول: « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون »

فما زال هذا البيت محل وفادة لجميع العرب من لدن إسماعيل، حتى جاءت قريش فكانوا جيرته الأدنين، يقيمون حوله ويقومون بسدانته، توفيرا لراحة زائريه، وعملا على إرضاء قاصديه، يستمعون جميع لهجات العرب إذا: دعوا ولبوا، أو تضرعوا و توسلوا، وإذا أرادوا أمرا أو قصدوا شيئا فلا يزالون موسم الحج على طوله؛ واذا لم يك حج كان اعتمار، ينقلون إلى لغتهم ما يستحسنون من ألفاظ وعبارات، وينقل الوافدون إليهم عنهم إذا قفلوا أكثر مما ينقلون هم، فينشرونه فى أرجاء الجزيرة ونواحيها وهكذا دواليك؛ بقيت قريش أداة أخذ وإعطاء تعمل بمجهود جبار على التوحيد والتهذيب، حتى تهذبت عبارتها، وترقى أسلوبها، واتسعت لغتها، فصارت أوفى بتأدية المراد من غيرها، وأصبحت لهجة مكة، وهى حاضرة العرب وبلدة قريش، أوضح اللهجات بيانا وأعذبها أسلوبا وأخفها منطقا وأوسعها فهما، شأن اللهجات فى حواضر المدن وقواعد الممالك، تجد لها من الحلاوة والطلاوة مالا تجده لغيرها فى سائر مدنها وجميع قراها.

ثم لم تك قريش محل وفادة فحسب، بل كانت بحكم عملها التجارى لاتزال تقطع بلاد العرب برحلة الشتاء والصيف إلى اليمن جنوبا والشام شمالا، فتغزو بهاتين الرحلتين وبغيرهما إلى غير هذين الاقليمين ما تصادف فى طريقها من خلاف، غزوا يكسر من حدته ويفل من غربه، فاذا هو خاضع مستكين، يتوارى ثم لا يلبث أن يزول.

## الاسواق

أما الأسواق فجمع سوق، وهى مجتمع الناس أصلا للبيع والشراء، وكانت للعرب أسواق عامة يبدءون التنقل اليها فى أوائل سنتهم بالشمال، ثم لا يزالون يسيرون اليها شرقا فجنوبا حتى ينتهوا من سوق صنعاء بانتهاء رمضان، فتعمد جميع القبائل إلى الاستعداد خلال شوال للرحلة الى سوق عكاظ، فيعمرونها أول القعدة إلى عشرين منه، ثم يغادرونها إلى مجنة قرب مكة بقية القعدة، ومن مجنة يذهبون إلى ذى المجاز بجانب عرفة، لا بمنى كما قد يقال، ومنها يكون المنصرف إلى الموقف الأعظم بعرفات، وبالصدور منه ينفرط عقد الناس.

ولما كانت هذه الأسواق الثلاث قريبة المكان من مكة، والزمن من موسم الحج، كانت أعظم الأسواق جمعا لقبائل العرب المتباعدة مقاما ونسبا، وكل مجتمع كهذا لا يخلو، والناس يزحم بعضهم بعضا، من بادرة غضب أو سابقة قول، وما أسرع تجمع الناس والتفافهم حول المختلفين، فيرى كل

( البقية على الصفحة رقم ١٤٩٤ )

# مذاهب العلماء وحقيقة الوجود

للاستاذ أمين فهمى أحمد

يا حيرتا في علوم لم تكشف الحق بعد
قالوا: الطبيعة أصل والأصل يرقى ويغدو
في نشأة بعد أخرى نجد يؤاتيه نجد
والذر فيه حياة وبالحياة يمد
إلى تطور عهد فيه الأناسى جند
والكل لم يك شيئاً والأصل في الناس قرد

* * *

غريزة العقل فيهم مثل الغرائز تبدو
بقدر تكوين كل والروح ليس تعد
سوى الحياة تباعاً مع التحول غمد
فتارة في زهور أو في البلابل تشدو
أو في البحار وترب أو في الصخور تشد
أو في الأثير تسامى والجو ذر مرد
ولا فناء لدنيا كانت وتبقى تصد
غوائل الفكر فيها فلا مليك وعبد
يؤيد الرأى هذا تلك «الغوريلا» ترد
على العقول بأنا بدع ترقى أشد

* * *

هذا فريق ومنهم من قال بل نحن فرد
من كهرباء سراعا تجرى وليس تحد
والروح أصل وجود منه العوالم حمد
على نظام ونسق من العلا تستمد
حياتها، ثم تفنى وللأله ترد
إلى حياة خلود وذاك قول أسد

* * *

فإن رجعت لدين فيه الهداية رشد
أرى العقول قصاراً والعلم ضلك «هند»
فأنت نور ونار وأنت أرض ومهد
وأنت عقل وفكر وفي السماء الممد
وأنت حرب وسلم وما لحرب أعدوا

وأنت سر مصفى إلى قلوب تمد
فلو تطهر قلب لكان فيه المرد
مظاهر الكون «هند» ياليتهم ما تعدوا
فوسعة القلب تهدى لوسعة لا تند
لكن «هنداً» أرادت بحيرة أن يردوا
إلى الصواب فجاءوا بباطل لا يسد
مغانى القلب كشفاً وفى الظلام تردوا
الله ربى إليه رجعى العوالم بعد
وسوف يعلم قومى أن المكون فرد
والفرد كل وجمع والجمع ليس يعد
ذاتى تسمى باسمى وكل عضو ممد
فباسمه جل ربى ماثم إلاه فرد
فحققوا القول تلقوا محجة الحق واهدوا

( بقية المنشور على الصحيفة رقم ١٤٩٢ )

## اللغة العربية فى جاهليتها

من المتنازعين حوله من الخلطاء والبعداء مايطلق من لسانه ، ويثير من انفعاله، فيقول ويفخر والجموع مثار القول والفخر، ثم ينصرفان وفى نفس كليهما موضع لم يبلغه، فيعود هو أو أحد عشيرته إلى السوق من عامه القابل، وقد أعد قولا يرد به على منازعه ويتكمل به نقصا فاته.

هكذا بدأ الاتجار بالكلام فى الأسواق، وما زال آخذا فى الازدياد حتى كان خير بضاعة، أو هو البضاعة النافقة فى هذه الأسواق، وأخصها عكاظ، فقد اعتادت القبائل أن تعد للقول بهاعدته، وللفخار آيته، فيستمع الحكمون، وإذا هم يقدمون ويؤخرون، وفى هذا من الباعث على الروية فى القول والتخير للفظ، مارفع من صناعة الكلام، وجعل التروى من عادة الكثيرين ، وقد كانوا من قبل ينطقون دون سبق روية أو تفكير، وشتان مابين البديهة وإن وافقت الصواب، وسداد البصيرة وهدى التفكير .

وإذ كان الشعراء والخطباء، وكل ذى كلام ، يريد له سعة فهم وكثرة ذيوع ، ولا بد أن يريد، نقول إذا كانوا يريدون هذا ويريدون لغة قريش أوفى اللغات به ، فقد انثنوا إليها جميعا يستوحون فصاحتها وبيانها، ويستمدون قوتها وسلطانها، حتى غطت على جميع اللهجات، فأصبحت العلم الذى بنوره يهتدى، والامام الذى بقوله يقتدى؛ عرف العرب لها ذلك واعتقدوه فى المحاكاة والتقليد، فأخذوا يتقربون بلغاتهم اليها؛ وكانت الأسواق من أقوى العوامل على هذا التقريب، حتى قارب توحيد اللهجات التمام، واستعد العرب لفهم القرآن الكريم، الذى نزل بلغة قريش، ومعرفة مواطن الاعجاز فيه، فلم يبق بعد نزوله إلا القليل من اللهجات، ثم لم تلبث أن قضى عليها القضاء الأخير ؟

السباعى السباعى بيومى